مفاهيم اسلامية

٢

حضارتنا في ميدان الصراع

عبد الهادي الفضلي

بسم الله الرحمن الرحيم

ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم •

(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

* * *

ان الحضارة — أية حضارة — لا تقوى مهما أوتيت من مناعة ذاتية ان لا تضعف ،وانلا تنصهرفي مجال التفاعل والصراع مع الحضارات الاخرى ، ما لم تتوفر على مناعة خارجية ، تصد عنها عوامل الضعف والانهيار ، وترد عنها عاديات القضاء والفناء .

ومن الطبيعي ان مثل هـذه المناعة الخارجية لا تتهيأ في المجـال الاجتماعي الا في القائمين على الحضارة ..

وذلك ان القائمين عليها متى كانوا من الوعي

والادراك السياسي والشعور بالمسؤولية وخطورتها في مدى بعيد •• متوفرين على القدر الكافي منه فى اعطاء المناعة الخارجية للحضارة ••

استطاعت الحضارة أن تشق طريقها فى ميدان الصراع ، مهما كان شائكاً ، ومهما ملأته العراقيل والعقبات ، الى سلالم الرقي والتقدم ، والى آفاق التوسع والانتشار بثبات واستمرارية •

فالمشكلة ــ فيما اعتقد ــ ليست مشكلة الحضارة ذاتها فحسب •• وانما هي مشكلة القائمين عليها أيضا •

وربما كانت مشكلة الحضارة في جانبها الثاني ــ أعني جانب القائمين عليها ــ اخطر وأعقد •• وأقرب الى محاولة العلاج •

ولعلي لا يعوزني الشاهد ــ هنا ــ فكلنا يعلم ان الحضارة الاسلامية تمتاز عن غيرها من الحضارات الاخرى بتوفرها على المناعة الذاتية لانها من الله تعالى

خالق الحياة البشرية والعالم باحتياجاتها الحضارية ..

وكلنا يعلم انها انحسرت عن توجيه وصياغة الحياة البشرية في أهم وأوسع جوانبها وهي الجوانب الاجتماعية ، وبخاصة السياسية والاقتصادية منها ..

فما هو السبب اذن ؟..

لابد وان يعود السبب هنا — الى القائمين عليها ، حيث ان الجانب الآخر — كما تقدم — في منأى عن تطرق الشك اليه ، أو اثارة الشبهة حوله « الاسلام يعلو ولا يعلى عليه » .

فالمشكلة في مجتمعاتنا ليست هي مشكلة الحضارة الاسلامية ، وانما هي مشكلة المسلمين أنفسهم، مشكلة مدى قيامهم بمسؤوليتهم تجاه حضارتهم ..

وهنا حيث انتهينا الى صميم المشكلة لابد لنا من وضع أصابعنا على نقطة الضعف في القائمين عليها .. تلك النقطة التي شكلت العامل الكبير في ازاحة الاسلام

عن الحياة ، وفى دخول الحضارات الكافرة ـ غربية وشرقية ـ الى مجتمعاتنا الاسلامية ، حتى عادت في أهم وأشمل ظواهرها ذات صبغة غير اسلامية •

والمشكلة ـ فيما أخاله ـ تمتد فى جذورها الى تلاعب بعض القائمين على الحضارة الاسلامية من الحكام المنحرفين ، الـذين اضعفوها في أفاعيلها الاجتماعية بسبب انحرافهم وعدم قيامهم بمسؤوليتهم الاسلامية تجاهها •••

ذلك التلاعب الذي أدى ـ بدوره ـ الى وجود بعض الاختلال في المجتمع الاسلامي ، وبين صفوف المسلمين ، فأفقدهم شيئاً ـ قد يكون كثيراً ـ من تماسكهم ووحدتهم ، وشيئاً ـ كذلك قد يكون كثيراً ـ من تعاونهم واخوتهم ••

التماسك والتعاون اللذان هما دعامتا التنظيم الاجتماعي ، وقاعدتا انطلاق الحضارة في تأديتها دورها

في فبركة وصياغة المجتمع وفق مفاهيمها ونظمها وما اليهما •

والذي أدى هو بدوره (أعني الاختلال) الى ايجاد الفجوات والثغرات التي استطاع المستعمر الكافر النفوذ منها الى مجتمعنا الاسلامي •

وهنا ترتبط حلقة اخفاق القائمين على حضارتنا في تزويدها بالمناعة الخارجية بالحلقة السابقة التي مهدت لها التمهيد الكبير •

وتتركز نقطة الضعف — هنا — ليس في الوقوف امام الحضارات الكافرة من التسرب الى مجتمعاتنا والنفوذ بين صفوفنا •• فقد كان وقوفهم في هذا المجال مشرفاً للغاية حيث قاموا بواجب الدفاع المسلح عن المبدأ وعن الامة ضد الغزو الاستعماري الكافر ••

وما حوادث المعارك الدامية التي قامت بينهم وبين الكافر الغازي ، في الثغور ، وفي الداخل ، الا اضواء

مشرقة تلقى على الموضوع ..

وعهدنا بثورة العلماء ضد الغزو الانكليزي في العراق قريب .. وكذلك في غير العراق .

وانما تتركز نقطة الضعف ، بعد ذلك ، واعني بعد أن أخفقنا في محاولـة منع الكفر من التسرب والنفوذ .

وهي تتلخص : في اننا اتبعنا اسلوب المقاطعة فحسب ..

والمقاطعة وان كانت اسلوباً يمليه الواجب الشرعي ـ هنا ـ ، الا انها ليست هي العامل الوحيد في تزويد حضارتنا بالمناعة الخارجية .. وانما هي أحد عاملين مهمين يشكلان ـ حيث يكمل أحدهما الآخر ـ العامل الوحيد في تزويد حضارتنا بالمناعة الخارجية ..

والعاملان ـ هنا ـ هما : المقاطعة والعمل .

واعني بالمقاطعة ـ هنا ـ : هو تحريم الأخـذ

بالحضارة الكافرة •

وأعني بالعمل ــ هنا ــ : هو سد كل المجالات الاجتماعية بوجه الحضارة الكافرة ، وذلك بملىء جميع الفراغات التي يشعر بها افراد المجتمع •

وهنا تبرز نقطة الضعف : فاننا حينما لم نستطع منع الحضارات الكافرة من التسرب الى مجتمعاتنا ومن النفوذ فيها •• قمنا باحد جزئي العامل الذي يزود حضارتنا بالمناعة الخارجية وهو (المقاطعة) ، وأهملنا الجانب الآخر ، وهو (العمل) ••

فمثلاً : حرمنا الدخول الى المدارس الرسمية ، فقمنا بهذا ، بأداء الواجب الذي يمليه علينا التشريع الاسلامي ــ هنا ــ وهو المقاطعة للمدارس الرسمية ، وفاتنا أن نهيء العامل متوفراً على كل أجزائه المتكاملة، لنزود حضارتنا بالمناعة الخارجية •

وذلك بأن نقوم بفتح مدارس أهلية ، نضع

مفردات مناهجها ، وتؤلف كتبها على ضوء حضارتنا .

وكان ذلك ظناً منا بأن المقاطعة وحدها ستقوم بدور التزويد بالمناعة الخارجية للحضارة .

وحينما رأينا خطأ ذلك الظن ، حيث لم تستطع المقاطعة وحدها ان تقوم بدور التزويد بالمناعة ، تنبه البعض منا الى انها لم تكن هي وحدها العامل ، وانما كانت — فى الواقع — جزء العامل الذي أفقدناه جزءه الآخر ..

وهكذا موقفنا تجاه سائر وسائل التربية والتعليم ووسائل الدعاية والنشر ، والوسائل الاخرى التي اسهمت وساعدت على تقوية وتدعيم الحضارات الكافرة وعلى صهر أبناء امتنا فى آتونها الملتهب .

وهنا استغل المستعمر الكافر نقطة الضعف هذه عندنا ، فذهب يخدرنا — وبمختلف الاساليب المسمومة الناعمة ، والتي استطيع أن اعبر عنها بالاساليب

الافعوية ـ بأن الدين بعيد عن السياسة ، وان القائمين على الدين ليس من شأنهم العمل في مجال السياسة .

وزاد في المخدر ، فعاد الحديث حول السياسة شيئاً يزري بالدين وبالمتدين ، وكذلك تأسيس الجمعية، واصدار المجلة أو الصحيفة، وفتح النادي أو المدرسة.. وشرها ازراء بهما : التكتل السياسي .

وتعمقت هذه الفكرة التخذيرية عن الدين والمتدين فتحولت الى نظرة عامة يرسلها اليهما كل من يعرفهما ، ضربت حولهما الاسوار العالية والحدود الحديدية ، وحصرتهما في قوقعة ضيقة الحجم وضيقة المنفذ .

وهكذا اقصيت حضارتنا عن مسرح الحياة الاجتماعية ، وازوي القائمون عليها عن العمل الاجتماعي الذي يقوم بدور الاسهام مع المقاطعة بتزويد حضارتنا بالمناعة الخارجية .

ومن أعظم ما منينا به لتضييق منفذ القوقعة التي

جلسنا القرفصاء فيها هو : ان أية محاولة للقيام بأي عمل من شأنه أن يشكل الجزء الآخر للعامل آنف الذكر ، أمثال : تأسيس جمعية أو نادي ، وفتح مدرسة أو مكتبة ، واصدار صحيفة أو مجلة ، تتصف بصفة الدين وتعمل في مجال الخدمة الدينية ، تقيد بشرط عدم التدخل في الشؤون السياسية ، لئلا يعود الدين مرة ثانية للحياة ، فتعود حضارتنا الى الميدان والى الصراع .. وربما توعينا ، فكانت النتيجة اتصارنا ، وهي نتيجة محتومة حتى في نظر المستعمر حينما تتوعى.

أرأيت أبعد من هذا في استغلال الموقف .!

أما التكتل السياسي فنحن أبعد ما نكون عنه ، وذلك بسبب تلك النظرة الضيقة التي نرسلها من نويفذة القوقعة .. لاننا متدينون ، ولأن المستعمر ربما يثير الغبار حولنا ، وربما يقول أشياء وأشياء .. وهكذا .

والتقاعس ــ بطبيعته ــ يحتال فى خلق المبررات، ويحتال فى خلق المثبطات .

واتبهنا ، وبخاصة بعد ان قسا المستعمر الكافر بضرباته ، ووخزنا ألمها الوخز الشديد .

فحاولنا العلاج للمشكلة .. وقلنا هو ان نعمل، وانكسر جانب من القوقعة، وانطلقنا .. وذهبنا نؤسس الجمعيات ، ونؤسس النوادي ، ونفتح المدارس على اختلاف أنواعها ، ونصدر الكتب والمجلات والصحف والنشرات .. ولكن مع شرط عدم التدخل في السياسة.

فعادت أمثال هذه الوسائل المذكورة في تنائجها وكأنها غير هادفة ، لأنها لا تستطيع أن تعمل ما يخالف السياسة ..

وعدنا ننظر أنفسنا ، واذا بنا لا نزال في القوقعة، ولا نزال نقعد القرفصاء ، واذا بنا سلطنا على أنفسنا اضواءالشمس ليهنأ الآخرون بهذه الجلسة الجميلة.

فما أروع أن يعود الانسان منطوياً على نفسه ..
وما أسهل أن يغمض عينيه لئلا يتألم .. ولأي شيء
خلقت الارادة اذا لم تكيّف الانسان ــ هنا ــ لتسعفه
من تأنيب الضمير ..!

والى هنا : اظنني في صميم الواقع حينما أقول :
ان العمل يتطلب حتمياً أن يقوم على أساس من السياسة،
وعلى أساس من عدم الفصل بين الدين والسياسة ،
لنستطيع أن نوفر لحضارتنا المناعة الخارجية لتقوم
بدورها في تكوين مجتمعاتنا مجتمعات اسلامية مرة
اخرى ..

فالعلاج الوحيد ــ فيما اعتقد ــ ان يكون الى
جانب المقاطعة : العمل السياسي في مختلف مجالاته ،
وباتباع مختلف وسائله ، ومختلف أساليبه .. فنقوم :

١ ــ بفتح المدارس في مختلف مراحلها : الروضة
والابتدائية والثانوية والعالية . . وللجنسين

شريطة أن تكون مناهجها وكتبها اسلامية خالصة، تستمد من حضارتنا الاصيلة النقية ، هادفين منها الى تغذية أبنائنا بالثقافة الاسلامية البناءة التي تحول من المسلم حركية فعالة فى طريق تكوين المجتمع الاسلامي، وان يكون القائمون على الادارة والتربية فيها مسلمين مبدئيين .

٢ ـ باصدار المجلات والصحف بمختلف الوانها : يومية واسبوعية وشهرية وفصلية .. شعبية وخاصة ، شريطة أن تموّن بالفكر الاسلامي الخلاق الهادف .

٣ ـ بنشر الكتب مفردة ومتسلسلة .. شعبية وخاصة ، ناشدين من ورائها تعميم الثقافة الاسلامية المبدعة الهادفة .

٤ ـ بايجاد المكتبات بأقسامها المختلفة : المتجولة والثابتة ، والريفية والمدنية ، مزودة بجميع ما تتطلبه مستوياتها ومجالاتها من الكتب والمؤلفات الاسلامية.

٥ ــ بتأسيس النوادي : ثقافية ورياضية ، شريطة أن تكون جادة ، وفي صدد غرس الروح الاسلامية وتنميتها وإثمارها •

٦ ــ بتكوين الجمعيات للخدمات الاجتماعيةعلى ضوء ما يأمر به الاسلام من أعمال البر والاحسان والتكافل وما شاكلها •

٧ ــ التكتل السياسي شريطة أن تتبع الأساليب في اطار الاحكام الاسلامية •

٨ ــ وبما يماثلها ••

انا متى قمنا بمثلهذا استطعنا أن نعيد لحضارتنا مجالها في ميدان الصراع، وبالأخرة مركزها في حياتنا •

ولعلنا نلمس الآنبوادر لذلك •• ندعوه تعالى ان يوفق العاملين من أجل اعلاء كلمته فى الارض •• انه سميع مجيب •

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)